المحاضرة الثانية

تاريخية الأجناس الأدبية(تابع)

تمهيد/ عود على بدء

بات من المعلوم أن موضوع الجنس الأدبي قديم في الفكرين الأدبي ـ الغربي والعربي ـ وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بالأدب بل وينبثق عنه، وقد نشأ وترعرع في رحابه. والجنس الأدبي كما سلف الذكر عبارة عن مجموعة من الأعمال الأدبية، توحّد بينها جملة من السّمات والخصائص، تلتقي من خلالها النصوص. لتصنع مفارقتها واختلافها عن النصوص الأخرى. وتنهض الأجناس الأدبية على تأمل الأدب بغية تصنيفه استنادا إلى مجموعة من المعايير والمقولات، كخصائص بنية شكله وأساليبه ومضامينه، وهذا ما يجعل معالجة موضوع الأجناس الأدبية، يستند بطريقة أو بأخرى" بصفة ضمنية أو صريحة، إلى نظرية في الأنواع. خصائص نوع لا تبرز إلا بتعارضها مع خصائص أنواع أخرى... لهذا فإن دراسة نوع تكون في الوقت نفسه دراسة للأنواع المجاورة [16] ومن هنا فالجنس الأدبي أيّ جنس لا يتحدد إلا من خلال اختلافه على مستوى الصياغة والدلالة والغاية عن غيره من الأجناس الأخرى، ونعني هنا اختلاف أساسياته وعناصره الثابتة(المرجعية) التي توجد في نصوص أدبية سبقت ظهور النص الجديد (مثل الخصائص العامة للشعر الملحمي في الإلياذة، والملاحم الشعرية الحديثة أو المعاصرة)

فالنص الأدبي ـ بفعل انفتاحه ـ غالبا ما يشتمل على مكونات وعناصر من نصوص أخرى لأجناس غير جنسه، لكنها لا تؤثر بشكل من الأشكال على الجنس الأدبي، لأن المهم هو ما تتضمنه من عناصر أساسية قارة وثابتة، وكلما انتهك جنس أدبي ظهر جنس آخر توالدا وتناسلا وانبثاقا [17]

2 ـ تاريخية الأجناس الأدبية(تابع)

ظهر الاهتمام بتجنيس الأدب مع أفلاطون في كتابه الجمهورية، وتبلور مع أرسطو في كتابه الرائد فن الشعر، الذي كشف عن وعي علمي بموضوع الأجناس الأدبية، الذي قسم فيه الأجناس إلى شعر وملحمة ودراما.

مرت فكرة التجنيس في الأدب بمرحلتين مهمتين هما:

ـ المرحلة الكلاسيكية/ امتداد الصفاء النوعي

وتعد هذه المرحلة امتدادا للنظريات الشعرية (الأدبية) التي أسس لها كل من أفلاطون وأرسطو" فقد دعا أصحاب هذه النظرية إلى فصل الأنواع الأدبية بعضها عن بعض، واعتبروها قارات منفصلة [18] فهي محدد لا يختلط فيها بعضها ببعض وقواعدها شبه أوامر فنية يلقيها الناقدون ويتبعها الشعراء والكتاب المنتجون، وقد انبثقت تقسيمات أرسطو من دراسته للشعر الإغريقي لدى كبار الشعراء: اسخيليوس ويوربيدس وسوفوكليس وأريستو فانيس وظل كتاب أرسطو المرجع الرئيس في الدراسات المتعلقة بالأجناس الأدبية في أوربا.

وتعد المرحلة الكلاسيكي التي تبدأ في إيطاليا في القرن السابع عشر امتدادا للنظريات الأدبية السابقة التي أسس لها أفلاطون وأرسطو بدعوتهما إلى الفصل بين الأجناس الأدبية، فهي" محددة لا يختلط فيها بعضها ببعض وقواعدها شبه أوامر فنية يلقيها الناقدون ويتبعها الشعراء والكتاب والمنتجون" [19] ويبنى التصور

الكلاسيكي للأدب على " اتباع الأصول الفنية القديمة للأدب"[20] لقضية الأجناس الأدبية "على أن الجنس لا يختلف في الطبيعة عن الجنس الآخر فحسب، بل أيضا على أنه ينبغي أن يفصل بينهما، ولا يسمح لهما بالامتزاج وهذا هو المبدأ الشهير المعروف بنقاء الجنس"[21]

المرحلة الرومانسية

يعود التشكيك في مسلمة الأجناس الأدبية إلى الرومانسية، فقد سعى أقطابها إلى إزالة الحدود بين الأجناس وهاجموا الكلاسيكية ورفضوا قواعدها الصارمة، فإذا كانت الكلاسيكية تفصل بين الأجناس الأدبية وتقيم حواجزا بينها، فإن الرومانسية قد وحّدت بينها ضمن النظرية الأدبية، فمقولة صفاء الأجناس في نظر (بنديتو كروتشي) مقولة تشوه وجه الأدب، وتحد من إبداع المؤلف، فهي تقوده من الاستجابة الحدسية إلى الاستجابة المنطقية"[22]

ويعد فيكتور هيجو من رواد الرومانسية الذين رفضوا قيود الكلاسيكية وثاروا عليها، وتبنوا مبادئ الحرية،

ودعوا إلى ضرورة إعادة الأجناس الأدبية إلى بدايتها الأولى، فأصبح بنضاله هذا "علما قوميا على حرية الشعب والفن"[23]

ويورد تودوروف في حديثه عن الفصل بين الأجناس الأدبية" قد يكون التخلي عن الفصل بين الأجناس الأدبية بعضها عن بعض علامة حداثة أصيلة لدى كاتب ما، وهذه الفكرة التي يمكن تتبع تحولاتها منذ بدايات القرن التاسع عشر(بالرغم من أن الرومانسيين الألمانيين أنفسهم كانوا بناة كبارا للأنساق النوعية)، تجد في أيامنا هذه أحد ألمع دعاتها في شخص موريس بلانشو(Maurice Blanchot): فهو الذي قال أكثر من أي أحد ما لم يجسر آخرون على التفكير به أو التعبير عنه: ليس اليوم أي وسط بين العمل الأدبي الخاص والمتفرد وبين الأدب برمته باعتباره جنسا نهائيا، لا يوجد هذا الوسيط لأن تطور الأدب الحديث، يقوم بالذات على أن تجعل من كل عمل أدبي أسئلة عن كينونة الأدب ذاتها"[24]

فالأدب في نظر بلانشو لا يقبل التفرقة بين الأنواع، بل إنها يسعى إلى تحطيم الحدود والحواجز بينها، حيث يذهب إلى القول" وحده الكتاب يهم، بما هو عليه بعيدا عن الأجناس، وخارج خانات: النثر، الشعر، الشهادة... التي يفترض أن ينتظم تحتها رافضا سلطتها المتقصدة إلى أن تثبته في موضع وتحدد له شكلا، إن الكتاب لم يعد ينتمي إلى جنس أدبي، فكل كتاب ينتسب للأدب وحده"[25]

ويقول في السياق ذاته:" كون الأجناس الأدبية لم تعد تتوفر على دلالة حيقية بحيث أصبح من العبث، مثلا، التساؤل عما إذا كان كتاب finnegan s wake ينتمي أولا ينتمي للنثر ولفن الرواية، هو أمر يشير إلى هذا العمل العميق للأدب الذي يحاول إثبات جوهره عن طريق تحطيم الفروق والحدود"[26]

وبذلك يتصدى بلانشو للقواعد الصارمة التي تحكم الإبداع الأدبي، ويدعو إلى ضرورة التحرر منها ومن كل الأحكام والتجارب السابقة (يتبع)